مجلة بحوث
كليـــــــــــة الآداب

البحث (٢)

السمات المعنوية للمرأة فى الشعر العربى القديم

(قراءة فى ثلاثة مصادر)

إعـــداد

د / عزة محمود عبد الرحيم الشاعر

مدرس بقسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية

فرع البنات – جامعة الأزهر

السنة ٢٢ العدد (٨٤) يناير ٢٠١١م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rjfa2012@ Gmail.com

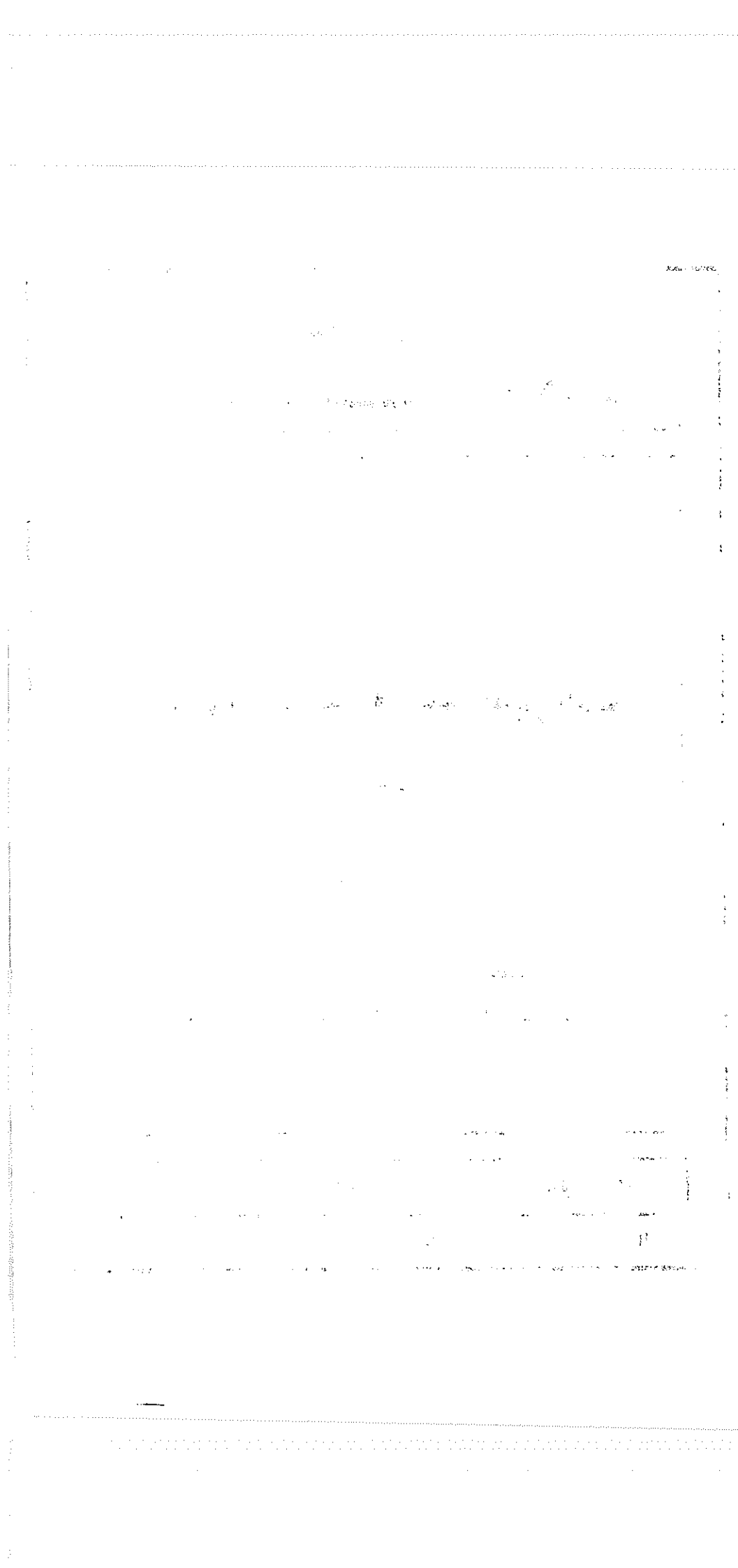

السمات المعنوية للمرأة في الشعر العربي القديم

(قراءة في ثلاثة مصادر)

د/ عزة محمود عبدالرحيم الشاعر
مدرس بقسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات – جامعة الأزهر

الملخص

هذا البحث يهدف إلي استطلاع السمات والخصائص المعنوية لصورة المرأة كما تبدو في الشعر العربي القديم في سياقات مختلفة غير سياق الغزل، ومدي تطور هذه السمات مع مرور الزمن، وقد كان الحافز لهذا البحث هو ملاحظة شيوع صورة المرأة في مجالات شتى في الشعر القديم، وتقلص مثل هذه الصورة من الشعر الذي تلا ذلك، حيث اقتصر ذكر المرأة على الغزل في الغالب الأعم، وعلى الرثاء في بعض الأحيان.

ولقد بدا في هذا إشارة على تطور حدث في الشعر فيما يتصل بذكر المرأة، مع إلقاء الضوء على مدي تطور الرؤية للمرأة في الشعر العربي وملاحظة إن كان ثمة تطور معين يتصل بصورة المرأة حدث في الشعر العربي.

ومن المعروف أن مجموعة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية حدثت في الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن الأول، ومن المستبعد أن تظل صورة المرأة في الشعر بمنأى عن التأثر بكل هذه التطورات.

السمات المعنوية للمرأة في الشعر العربي القديم

(قراءة في ثلاثة مصادر)

د/ عزة محمود عبدالرحيم الشاعر
مدرس بقسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات – جامعة الأزهر

تمهيد:

من الملاحظ شيوع صورة المرأة في مجالات شتى في الشعر العربي القديم الجاهلي والأموي، وتقلص مثل هذه الصورة من الشعر الذي تلا ذلك، حيث اقتصر ذكر المرأة على الغزل في الغالب الأعم، وعلى الرثاء في بعض الأحيان، كما ورد في ديوان ابن قلاقس الإسكندري (ت ٥٦٧) وديوان ابن النبيه المصري (ت٦١٩) وديوان حازم القرطاجي (ت٦٨٤) وديوان صفي الدين الحلي (ت٧٥٢) حيث لا يكاد يوجد ذكر للمرأة في غير الغزل، أما ديوان المفضل الضبي، المفضليات تبدو الإشارة فيه إلى المرأة في الغزل وغير الغزل كلوم المرأة زوجها والفخر بالجدات وكرم الأمهات، كذلك الأصمعيات (مجموعة أشعار العرب) نلحظ في الجزء الأول منه لوم المرأة زوجها لتعريضه نفسه للمهالك والحديث عن الأم والزوجة ولقد بدا في هذا إشارة إلي تطور حدث في الشعر فيما يتصل بذكر المرأة.

هذا ولقد أردت أن أوضح في هذا البحث خصائص وسمات المرأة المعنوية كما تبدو في الشعر العربي القديم في سياقات مختلفة غير سياق الغزل.

فالنقاد القدماء على الرغم من ملاحظاتهم للتطور في الشعر مثل ملاحظة القاضي الجرجاني لتطور الإستعمال اللغوي وإتصاله بالشعر، وملاحظة ابن رشيق للتطور في الذوق وأثر ذلك على الصور الشعرية، لم يذكروا ما يشير إلى التطور في ذكر المرأة في الشعر.

وفي العصر الحديث نجد الدراسات الأدبية التي تناولت صورة المرأة في الشعر العربي القديم تهتم في الغالب بصورة المرأة في الغزل.

وعلى الرغم من وجود دراسات تناولت الإشارة إلى المرأة في غير شعر الغزل إلا أنها إما كانت تهتم بالنواحي التاريخية وتعتمد على الشعر على أنه مصدر معلومات أو هي تتناول صورة المرأة تناولاً عارضاً في ثنايا موضوع أساسي يكون هو محور إهتمام الباحث، ومن هنا بدت السمات والخصائص المعنوية للمرأة في الشعر من أحد الجوانب التي تستحق الدراسة.

هذا ولقد اعتمدت على ثلاثة نصوص نقدية تعود إلى فترة زمنية متأخرة وتعرض للسمات المعنوية للمرأة في الشعر العربي، لتكون محورًا يرتكز عليه البحث للنظر في هذا الموضوع.

ففي كتب النقد العربي ثلاثة نصوص نقدية تتصل بصورة المرأة في الشعر، تعود لنقاد عاشوا بين القرن الخامس والقرن السابع الهجريين.

النص الأول: للحصري (ت ٤٥٣هـ) في كتابه زهر الآداب، وهو يشير إلى قلة وجود القيم الإنسانية التي يمكن أن يمتدح فيها النساء في الشعر في مجال الرثاء فيقول:

((والتصرف في النساء ضيق، شديد الخناق، وأكثر ما يمدح به الرجال ذم لهن ووصم عليهن.... ألا ترى أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفطن، وما جرى في هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح به النساء لكان نقصاً عليهن وذماً لهن)) [١].

والنص الثاني: لابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) في كتابه (العمدة) وهو يشير أيضاً إلى أن مجال الرثاء للمرأة ضيق جداً على الشاعر لقلة الصفات:

((ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو إمرأة، لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات)) [٢].

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب ج٢ ص ٣٧٠.

(٢) العمدة: لابن رشيق ج٢ ص ١٥٤.

والنص الثالث: لابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) في كتابه (المثل السائر)، وقد تضمن أنه مما انتقد الناس على أبي نواس في إحدى قصائده التي امتدح فيها الأمين أنه أورد اسم أم خليفة ناسباً إياه إليها، ويعلق ابن الأثير على مثل هذه النسبة إلى الأم في مجال المدح بأنها لغو من الحديث لا فائدة فيه، فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال لا إلى النساء[٣].

وابن الأثير لم يفته أن يلاحظ أن أبا نواس ربما كان يتبع جريراً وكثيراً وكلاهما قد ورد في شعره نسبه الممدوح إلى أمه.

ولكنه يعلق على هذا بأنه من المعيب في الشعر، ذلك أن العرب قد كان يعير بعضها بعضاً نسبته إلى أمه[٤].

وينص ابن الأثير على أن اسم الأم معيب، وأن قتيلة بنت النضر حين أشارت إلى أم النبي (صلى الله عليه وسلم) في ثنايا مدحها له قالت: (ولأنت نجل كريمة من قومها) (فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم، وأبرزت هذا الكلام في هذا اللباس الأنيق[٥].

واعتماد هذه النصوص محوراً للبحث جاء من خلال كونها تعود إلى فترة متأخرة، وهذا يثير التساؤل حول أن تكون هذه الرؤية للمرأة قائمة منذ القدم أو أن تكون هذه الرؤية هي نتاج للفترات الزمنية المتأخرة سواء التي عاش فيها هؤلاء النقاد أو التي سبقتهم مع مراعاة التسلسل الزمني للشعراء الذين ورد شعرهم في هذه الفترة والمقارنة بين ما تحمله هذه النصوص من آراء بما ورد في الشعر العربي القديم، ومدى تطور الرؤية للمرأة في الشعر العربي وملاحظة إن كان ثمة تطور معين يتصل بصورة المرأة حدث في الشعر العربي، وبالتالي أثر على السمات والخصائص المتصلة بالمرأة والشعر، فمن المعروف أن هناك مجموعة من التطورات الأجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية حدثت في الحضارة

---

(٣) أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج٢ ص ٣١٩.

(٤) أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج٢، ص ٣٢١.

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٩.

العربية الإسلامية منذ القرن الأول، ومن المستبعد أن تظل صورة المرأة في الشعر بمنأى عن التأثر بكل هذه التطورات.

إن القيم الشعرية التي يعرض لها الشعراء ويتطرق إليها النقاد ليست هي على خصوصيتها قيماً معزولة في عالم الشعر، وإنما هي قيم تتصل بصورة أو أخرى بالأفكار التي تحيط بها والثقافة السائدة في عصر الشاعر أو الناقد في وسط معين.

وسواء كان الشاعر يتبنى قيم الجماعة أو يخالفها أو يعبر عن ذاته، تظل العلاقة بين الشعر والمجتمع قائمة فيما يتعلق بالقيم كما نرى هذا في الشعر الغنائي في العصر الحديث الذي يبدو متمرداً على بعض أنظمة المجتمع، كما أن الشكل الأدبي نفسه على سبيل المثال يمكن أن تكون له معانٍ إجتماعية بالغة الإختلاف في سياقات مختلفة.

وفي الشعر القديم حين تقول ليلى بنت طريف ترثى أخاها:

فقدناه فقدان الربيع فليتنا

فديناه من دهمائنا بألوف[٦]

فالبيت هنا بغض النظر عن سمة الحزن فيه فهو يعكس قيمة من قيم الجماعة التي تعلي دور البطل وتجد أن حياته تعادل حياة ألوف من الدهماء.

وحين يقول عبيد بن ناقد مادحاً شجاعة قبيلته وهزيمتها لقبيلة أخرى

عشية لولا حياء النساء

لسقنا الديار وآطامها

يبدو الحياء هنا في هذا السياق الذي يمتدح فيه الشاعر، بأن رجال قبيلته المنتصرين ما منعهم من أن يذهبوا بكل شيء إلا الحياء من النساء، متصلاً بقيمة يتمثل فيها الحرص على أن يظل الرجل نبيلاً في عين المرأة[٧].

وحتى حين يقول المخبل السعدي بما يوحي بالتفرد له ولأبطال قبيلته:

---

(٦) الحماسة للبحتري ص ٢٧٧.

(٧) الخالديان – الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ج٢ ص ١، ٣.

يبكي علينا، ولا نبكي على أحد
لنحن أغلظ أكبـاداً مـن الإبـل[٨]

فالبيت بغض النظر عن سمة التعالي فيه على أي مظهـر مـن مظـاهر العاطفة البشرية التي قد تستدعي البكاء في موقف ما، فهو يعكس قيمة مـن قـيم المجتمع التي ترفع مكانة من يحتاج إليهم الناس ومن يؤثر فقدهم تأثيراً جوهرياً في حياة من حولهم (يبكي علينا) [٩].

وبناء على هذا فإن الشعر الذي يتصل بسمات المرأة المعنوية أو بظهورها في الشعر في غير الغزل يظل يعكس بصورة أو أخرى قيماً موجودة في المجتمع.

وما ورد في هذه النصوص يمكن أن يقسم كالتالي:

أولا: أن ذكر اسم أم الممدوح أو نسبته إليها من المعيب في الشعر وهو ما جاء في نص ابن الأثير.

ثانيا: هناك صفات معنوية من الممكن أن تمدح بها النساء وهو ما جاء في نـص الحصري وابن رشيق.

ومن الواضح أن هذه النصوص تبدو كمن يعرض حقائق لا خلاف عليها، وأنها ترى هذا موجوداً في الشعر القـديم وينبغـي أن تكـون معيـاراً للشـعراء المتأخرين[١٠].

ولهذا كان من الضروري الرجوع إلى الشعر القديم الذي يسـبق هـؤلاء النقاد وملاحظة مدى إنطباق هذان النصان عليه.

فعند النظر إلى نص ابن الأثير السابق نراه يقرر أن العرب لا تذكر اسـم الأم في الشعر عند المدح وأن العرب إنما يعيب بعضها بعضـاً بـذكر اسـم الأم ومقارنته بما هو موجود في الشعر العربي القديم حتى القرن الثاني الهجري، نجـد الأمر يختلف عما ذكره ابن الأثير.

---

(٨) ابن قتيبة – عيون الأخبار المجلد الثاني ص ١٩٢.

(٩) يتكرر في الشعر العربي القديم في الرثاء ذكر المحتاجين الذين يبكون على الميت مثال أوس بن حجر في ديوانه ص ٥٥ والخنساء في ديوانها ص ١٥٠ والفرزدق في ديوانه ص ١٨٦.

(١٠) الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ص ١٢٨.

ففي الشعر الجاهلي نجد النابغة يرثى فينسب المرثي إلى أمه فيقول:

بعد ابن عاتكة الثاوي على أبوي

أضحى ببلدة لا عم ولا خال

سهل الخليقة مشاء بأقدامه

إلى ذوات الذرى حمال أثقال[١١]

ويرثي حسان بن ثابت جعفر بن أبي طالب فيذكر اسم أمه فيقول:

بعد ابن فاطمة المبارك جعفر

خير البرية كلها وأجلهّا[١٢]

كما يمدح الغساسنة فينسبهم إلى جدتهم مارية فيقول:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريم المفضل[١٣]

وكذلك في الإسلام نجده يمدح الرسول فيذكر اسم أمه قائلا:

يا بكر آمنه المبارك ذكره

ولدتك محصنة بسعد الأسعد[١٤]

وفي العصر الأموي نجد ذكر أسماء الأمهات يتكرر في ثنايا المدح في أشعار الفرزدق وجرير كما يتكرر في ثنايا الفخر عند الفرزدق فنجده يشير إلى نفسه مفتخراً فيقول:

أنا ابن عقال وابن ليلى وغالب

وفكاك أغلال الأسير المكفر[١٥]

---

(١١) ديوان النابغة، ص ١٤٠.

(١٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ١٩٨.

(١٣) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ٨٣.

(١٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ٦٢.

ويقول:

فلو كنت من أكفاء حدراء لم تلم

على دار مي بين ليلي وغالب[١٦]

ويشير إلى عثمان بن عفان في سياق المدح بقوله:

إذا ذكرت عيونهم ابن أروى

ويوم الدار أسبلت انسكابا[١٧]

ثم يخاطب أحد أحفاد عثمان فيقول:

نمى الفاروق أمك، وابن أروى

أباك فأنت منصدع النهار[١٨]

ثم نجد الأحوص يمدح عبد العزيز بن مروان فيكرر في قصائده ذكر اسم أمه ليلى فيقول:

إني رأيت ابن ليلى، وهو مصطنع

موفقاً أمره حيث انتوى رشد[١٩]

هذا ولقد كان عبد العزيز بن مروان يطلب من الشعراء أن يذكروا أمه في مدحه لشرفها كما يقول:

أغر لمروان وليلى كأنه

حسام جلت عنه الصياقل قاطع[٢٠]

كما نجد جرير يخاطب عبد العزيز بن الوليد (بن عبد الملك) في سياق مدحه له فيقول:

---

(١٥) ديوان الفرزدق، ج ١، ص ٣٧٩.

(١٦) ديوان الفرزدق، ج١، ص ٩٧.

(١٧) المصدر نفسه ص ٨٢.

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٩٢.

(١٩) شعر الأحوص الأنصاري، ص ٩٧.

أبينا فما يدعو إلى غيرك الهوى

وما من خليل يا بن ليلي نبادله[٢١]

ويوجه الخطاب إلى جرير بن يزيد البجلي مادحاً بقوله:

يا ابن العواتك خير العالمين أبــا

قد كان يدفئني من ريثكم كنــف[٢٢]

والعواتك إشارة إلى عدد من جدات الممدوح وكلهن يحملن اسم عاتكة.

كما يمدح هشام بن عبد الملك فيذكر اسم جدته برة بنت مر فيقول:

ســما أولاد بــرة بنــت مــر

إلى العلياء في الحسب العظيم[٢٣]

(وبرة بنت مر) كانت أم النضر بن كنانة وهو أبو قريش[٢٤].

كل هذه الأمثلة السابقة تظهر بوضوح أن ذكر اسم الأم والنسبة إليها ظل يرد في الشعر في مجال المدح والفخر حتى القرن الأول الهجري أو بعده بقليل وأن ما ذكره ابن الأثير من عدم ذكر أسماء الأمهات عند المدح ليس صحيحاً.

أما إشارته إلى أن أسماء الأمهات إنما تذكر عند التعيير والثلب، فيبدو أنه أغفل أن هذا يقابل التمدح أو الفخر بالأم، وعلى سبيل المثال حين يهجو حسان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فيذكر أن جداته لم يقربهن المجد وأنه ما دام ينتمي إلى (سمية) (وسمراء) فسيظل مغلوباً.

وما ولدت أفنــاء زهــرة مــنكم

كريماً ولم يقرب عجــائزك المجــد

وإن امــرأ كانــت ســمية أمــك

وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهــد[٢٥]

---

(٢١) ديوان جرير، ص ٣٥٠.

(٢٢) ديوان جرير ص ٣٠٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

(٢٤) الكامل للمبرد، ج٢، ص ٤٨٩.

فهذا النفي في عبارة (لم يقرب عجائزك المجد) إثبات أن هناك عجائز غيرهن قريبات من المجد، واستعمال اسم العلم في (كانت سمية أمه وسمراء) في سياق البيت لا يعني التعبير بمجرد ذكر أسماء هؤلاء الجدات وإنما يلمح إلى شهرتهن في ناحية سوء، مثلما أن إيراد اسم الأم في سياق المدح أو الفخر في الأمثلة السابقة يومئ إلى الاشتهار بمجد أو مزية تغني الشاعر عن إيضاحها.

ويبدو أن صفات الأم تنتقل إلى الأبناء في منطق الشعر كما في قول جرير:

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها

وابن اللئيمة للئام نصور[٢٦]

وكما في هذين البيتين من الشعر القديم اللذين أوردهما الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة):

فلو كنتم لمكيسة أكاست

وكَيسُ الأم يظهر في البنينا

ولكن أمكم حمقت فجئتم

غُثاثا ما نرى فيكم سمينا[٢٧]

إذن فالكرم واللؤم والحمق والكيس ينتقلان إلى الأبناء من الأمهات وأن الفخر بالنسبة إلى الأمهات ليس من لغو الحديث كما ذكر ابن الأثير وإنما هو متداول في الشعر العربي القديم.

وبالرجوع إلى دواوين الشعر العربي القديم نجد أن معظم القيم المعنوية التي يمدح بها الرجال ظلت من القيم العليا التي يمكن أن تسبغ على المرأة عند المدح وقد يكون ورود مثل هذه السمات في المدح قليلاً للنساء، لكن قلة المدح لا تعني إطلاقاً أن ذكر هذه القيم ذم للنساء كما ذكر الحصري، والتوقف عند السياق

---

(٢٥) ديوان حسان، ص ٩٧.

(٢٦) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، ج١، ص٤٤٢.

(٢٧) أساس البلاغة – مادة كيس.

الذي ورد فيه نصا الحصري وابن رشيق المشار إليهما آنفا، يبين أن صورة المرأة في النصين هي صورة المرأة في مجال الغزل

فالحصري يستشهد على قلة وجود القيم المعنوية عند النساء بقول ابن الرومي:

ما للحسان مسيئات بنا ولنا
إلى المسيئات طول الدهر تحنان
فإن يبحن بعهد قلن معذرة
إنا نسينا وفي النسوان نسيان
لا نلزم الذكر إنا لم نسم به
ولا منحناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم
جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن منهم وفاء لا نقوم به
وهل يكون مع النقصان رجحان[٢٨]

فأبيات ابن الرومي من الواضح أنها في مجال الغزل، كما أن الأبيات تحمل خليطاً من الهزل والجد حين تنفي عن النساء صفات الوفاء والالتزام بالعهد والجود والبأس والأحلام وتثبتها للرجال وحدهم.

فمن المعروف عند النقاد العرب أن الرجل الذي يمدح بالشجاعة عند الحرب والصبر عند الطعان، هو نفسه الذي يوصف في مجال الغزل بالضعف والتهالك وعدم الصبر، ونرى قدامة بن جعفر في حديثه عن النسيب الجيد يقول (هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحفظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة[٢٩].

---

(٢٨) زهر الآداب، ج١، ص ٣٧٠.

(٢٩) نقد الشعر – قدامة بن جعفر، ص ٦٥.

أما بن رشيق، فقد كان هو أيضا يتحدث في نصه السابق عن رثاء النساء في سياق يربطه بالغزل أو بالعلاقة العاطفية بين الزوج والزوجة، ولذا نراه يستشهد بأبيات ابن الزيات في رثاء أم ولده[٣٠] وأعتبرها نموذجاً يعتمده الشعراء المجيدون في رثاء المرأة، ومع ابن رشيق لاحظ أن بعض مراثي النساء تختلف عن النموذج الذي أورده، ذلك أنه في رثاء (نساء الملوك، وبنات الأشراف، وغير ذوات محارم الشاعر، فإنه يتجافى عن هذه الطريقة الممدوحة إلى أرفع منها) [٣١].

فقد جعل هذا من قبيل الاستثناء للقاعدة.

وإشارة ابن رشيق لضيق الصفات في رثاء المرأة، يبدو فيها قصر لصفات المرأة على جانب الغزل وحده، ويبدو أن ابن رشيق هنا قد عد النساء جميعا فئة واحدة لها صفاتها الخاصة في جانب الغزل، ولذا جعل مديح المرأة أو رثاءها لا يتجاوز هذا الجانب الغزلي ولذا جاءت إشارته إلى ضيق الصفات، فمفهوم القيم في شعر الغزل يختلف عن مفهومها في مجالات الشعر الأخرى.

فحين يصف جميل محبوبته بالبخل فيقول:

ويقلن إنك يا بثن بخيلة

نفسي فداؤك من ضنيني باخل[٣٢]

أو يصفها بعدم الوفاء بالوعد كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وما مواعيدها إلا الأباطيل[٣٣]

تظل هاتان الصفتان مقصورتين على السياق الغزلي الذي وردتا فيه دون أن تقبلا التعميم، وملاحظات النقاد القدماء عن صورة المرأة في مثل هذه الأبيات

---

(٣٠) العمدة، ابن رشيق، ج٢، ص ١٥٦، ١٥٧.

(٣١) العمدة، ج٢، ص ١٥٧.

(٣٢) ديوان جميل بثنية ص ٨٠.

(٣٣) ديوان كعب بن زهير وإنما يوصفن بالبخل والامتناع وليس بالوفاء والأمانة، العقد الفريد، ج٥، ص ٣٦٨.

التي تصفها بالبخل، وعدم الوفاء بالوعد تجعلها ترتبط بجانب الترفع والعفاف، وعلى هذا تغدو قيمة عليا للمرأة في هذا المجال وحده.

وهناك أمثلة غير قليلة من الشعر الجاهلي والأموي يظهر فيها مدح المرأة بسمات الكرم والوفاء وما يتصل بهما.

فالراعي النميري (ت٩٦-٩٧هـ) في أبيات يمدح فيها امرأة ضمن قصيدة يمدح فيها أحد بني سفيان، ولعل الممدوح هو يزيد بن معاوية، ولعل المرأة التي يشار إليها هنا هي زوجه فيقول:

وأمسى كفتنا الأمهات حفيّة

لها في ثناء الصدق جد وطائرُ

فما أم عبد الله إلا عطية

من الله أعطاها امرءاً فهو شاكرُ

هي الشمس وافاها الهلال، بنوهما

نجوم بآفاق السماء نظائر

تذكرُها المعروف وهي حيية

وذو اللب أحياناً مع الحلم ذاكر

كما استقبلت غيثاً جنوب ضعيفة

فأسبل ريانُ الغمامة ماطرُ[٣٤]

فالتحقق من شخص هذه المرأة ليس هو المقصود بقدر ما يعنينا ملاحظة صفات المدح للمرأة التي تتصل بالقيم العامة للإنسان، ومن هذه الصفات (ثناء الصدق) ومنها (هي الشمس) فالشمس هنا وإن تضمنت الإيماء إلى الجمال، فهي تشير أساساً إلى سمات الرفقة المثالية على المستويات كافة حين تقترن في البيت بالهلال والنجوم والسماء في سياق استعاري معين ومنها (تذكرها المعروف)، فالمقصود هنا توقع الكرم من هذه المرأة، ويتبعها إسباغ صفات الحلم واللب عليها،

(٣٤) الراعي النميري صـ١٣٨، ولم يرد في النص أية إفادة عن الشخص الذي توجه إليه القصيدة الخطاب.

كما أن وصف هذه المرأة بأنها (أماً كفتنا الأمهات حفية) يوحي بتوقع العطاء منها هي وليس مجرد حثها عليه.

وتنسب للأحوص أبيات قيلت في عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، وذلك عند مقتلها لسبب سياسي، منها هذان البيتان:

ألم يعجب الأقوام-من قتل حرة

من الجامعات العقل والدين والحسب

من العاقلات المؤمنات بريئة

من الشك والبهتان والإثم والريب[٣٥]

فالشاعر هنا يكرر الوصف لهذه المرأة بالعقل والدين والحسب، وهذه الصفات واضح أنها من القيم التي يمدح بها الرجال:

ويقول حطان بن عمران في زوجه جمرة:

يا جمر إني علي ما كان من خلقي

مُثنٍ بخَلات صدق كلها فيك

الله يعلم أني لم أقل كذباً

فيما علمت وأني لا أزكيك[٣٦]

فالبيتان قد وردا منفردين في الديوان ويبدوان كأنهما مقدمة لأبيات مدح يجنح فيها الشاعر إلى التفصيل، وحقاً إنه لا يمكن التنبؤ بالصفات التي ذكرها الشاعر بعد البيتين أو التي كان سيذكرها إن كانت القصيدة أو القطعة لم تكتمل لديه، ولكن استعماله لفظ (مثن بخلات صدق) يوحي بصفات معنوية عدة ينحو الشاعر فيها منحى الجد لا الهزل، إذ (خلات صدق) تفيد الخِلاَل المرضية والصدق يرتبط بالأمور الجادة، (وإنما الصدق الجامع للأوصاف المحمودة) (والصدق الكامل من كل شيء).

وفي الشعر الجاهلي يقول الشنفري، وهو من الشعراء الصعاليك، يمتدح أميمة وهي امرأة يتغزل بها فيقول:

تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها

---

(٣٥) شعر الأحوص الأنصاري ص ٢١١.

(٣٦) شعر الخوارج، إحسان عباس، ص ١٧.

لجارتهـــا إذا الهديـــة قلـــت [٣٧]

فهو هنا يشير إلى مدى الجود المتمكن عند هذه المرأة حتى مع الإقـلال، ومدى الاهتمام بالآخرين.

والتمدح بالاهتمام بالآخرين والإيثار على النفس في أوقات الشـدة فهـذه القيم تتكرر كثيراً في الشعر القديم، خاصة في شعر الصعاليك فنرى عـروة بـن الورد يقول:

أقسم جسمي في جســوم كثيــرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد[٣٨]

فالشاعر لا يشير هنا لكثرة المال عنده، وإنما يشير لجودة وإيثار الآخرين ويقول أوس بن حجر يثني على حليمة بنت فضالة حيث "يذكر يدها عنده ورعايتها له حين صرعته ناقته".

لعمرك مـا ملـت شـواء ثويبهـا

حليمـــة إذ ألقـــت مراســـي مقعـــد

ولكـــن تلقـــت باليـــدين ضـــمانتي

وحل بشرج مـــن القبائـــل عـــودي

وقد غبرتْ شهري ربيـــع كليهمـــا

بحمـــل البلايـــا والحبـــاء الممـــدد

ولم تلههـــا تلـــك التكـــاليف إنهـــا

كما شئت مـــن أكرومـــة وتخـــرد

هي أبنـــة أعـــراق كـــرام نمينهـــا

إلـــى خلـــق عـــفّ بَرَازتـــهُ قـــد

سأجزيك أو يجزيك عنـــي مثـــوب

(٣٧) المفضل الضبي، المفضليات، ص ١٠٩.

(٣٨) ديوان عروة بن الورد، ص ٢٩.

وقصرُك أنْ يثني عليك وتحمدي[٣٩]

فالأبيات يبرز فيها مدح هذه المرأة بالسمات المعنوية من حسن الرعاية والكرم، إلى جانب الخلق العف والحياء.

ولقد جاء في الشعر القديم هجاء المرأة بالبخل، ومن الطريف أن الحصري نفسه في كتابه (زهر الآداب) يورد قصيدة للقطامي يهجو فيها امرأة بالبخل فيقول:

تلفعت في طل وريح تلفني
وفي طرمساء غير ذات كواكب

إلى حيزبون توقد النار بعد ما
تلفعت الظلماء من كل جانب

تصلي بها برد العشاء ولم تكن
تخال وميض النار يبدو لراكب

فسلمت والتسليم ليس يسرها
ولكنه حتم على كل جانب

فردت سلاما كارهاً ثم أعرضت
كما انحاشت الأفعى مخافة ضارب

ويصف الحصري هذه القصيدة بأنها من خبيث الهجاء[٤٠].

فالحصري هنا لم ينتبه إلى التناقض بين قوله هذا وما جاء في نصه السابق، ولو كانت المرأة تمتدح بالبخل لأنها لم تستضفه.

إن البخل في غرف الشعر العربي القديم يعيب المرأة مثلما يعيب الرجل، والكرم هو من سمات النبل، سواء عند المرأة أو الرجل.

كما أن هناك مأثورات عربية نثرية تورد روايات أسطورية عن كرم المرأة العربية لا تختلف عن مثيلاتها التي تروى عن كرم الرجل، ذلك مثلما يروي

---

(٣٩) ديوان أوس بن حجر، ج٣، ص ٧١.

(٤٠) زهر الآداب للحصري، ج٢، ص ٦٧٢، ٦٧٣.

عن أم حاتم أنها كانت من أسخى النساء وأقراهم للضيف وكانت لا تليق شيئا تملكه[٤١].

ويروي عن كرم سفانة بنت حاتم، وأنها كانت من أجود نساء العرب وأن أباها على كرمه قال لها (فلا نتجاور أبداً) وأنه قاسمها ماله وافترقا[٤٢].

وكذلك ما يروى عن إجارة المرأة، وأن إجارتها وعقدها تنفذ على الرجل قريبها.

فقد روى الجاحظ ما قاله عبد الله بن زياد لمسعد العتكي حين أراد أن يخرجه من بيته وألا يجيره (أجارتني ابنه عمك عليك، وعقدها العقد الذي يلزمك)[٤٣].

وليس يعنينا هنا صدق هذه الروايات أو مدى حدوثها في الواقع من الأشخاص الذين تنسب إليهم بقدر ما يعنينا أن هذه الروايات توجد بالفعل في الكتب العربية وأنها تمثل جانباً من القيم، كما أن ورود هذه الروايات يفيد عكس ما ذكره الحصري من عدم مدح النساء بالقيم التي يمدح بها الرجال، فهنا خلط بين صورة المرأة في الغزل وصورتها في مجالات الحياة الأخرى.

كذلك عند تتبع رثاء المرأة في الشعر العربي، نجد العديد من الصفات المعنوية للمرأة، فنجد المتنبي (ت٣٥٤هـ) يقول في القصيدة التي يرثي فيها جدته حيث يصفها بالحزم في هذا البيت فيقول:

فسوا أسفا ألا أكب مقبلاً

لرأسك والصدر اللذين ملئا حزما

ويصف شهرتها بالخير في البلد ومحبة الناس لها من خلال صورة شعرية تقيم بين البلد والجدة علاقة عاطفة قوية:

ولو قتل الهجر المحبين كلهم

---

(٤١) ذيل الأمالي والنوادر (ملحق بكتاب الأمالي) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ص ٢٣.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٤٣) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢، ص ٦٨، ٦٩.

مضى بلد باق أجدت لـــه صـــرما

كما يصفها بالعطاء والإيثار على النفس فيقول:

منافعها ماضرّ، في نفع غيرهـــا

تغذي وتروي أن تجوع وأن تظمى(٤٤)

وفي رثاء المتنبي لأخت سيف الدولة، يرد الوصف بكثرة العطايا وإغاثـــة الملهوفين فيقول:

كأن فعلـــة لـــم تمـــلأ مواكبهـــا

ديار بكر ولـــم تخلـــع ولـــم تهـــب

ولـــم تـــرد حيـــاة بعـــد توليـــة

ولم تغث داعياً بالويـــل والحـــرب

كما يتطرق إلى مدى شهرة هذه المرثية والى الحزن الذي عم الجميع حين سماع خبر موتها فيقول:

تعثـــرت فـــي الأفـــواه ألســـنها

والبرد في الطرق والأقلام في الكتب

ويتطرق إلى اهتمامات هذه المرأة بالأمور المتصلة بالملك والعلا فيقول:

وهمها في العلا والملـــك ناشـــئة

وهم أترابها في اللهو واللعـــب(٤٥)

فالعلا والملك وإغاثة المستنجدين وتوزيع الخلع والهبات إنما هي مما يمدح به القادة من الرجال، كما أن المتنبي في هذه القصيدة يجعل المرثية تتميز حتى عن القبيلة التي ينتمي إليها كل قومها فيقول:

وإن تكن تغلب الغلبـــاء عنصـــرها

فإن في الخمر معنى ليس في العنب(٤٦)

وفي رثاء المتنبي لأم سيف الدولة، يرد الوصف بالمجد والكرم فيقول:

---

(٤٤) أبو الطيب المتنبي (الديوان) ج٤، ص ١٠٦.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٤٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٤.

أســـائل عنـــك بعـــدك كـــل مجـــد

ومـــا عهـــدي بمجـــد عنـــك خـــال

يمـــر بقبـــرك العـــافي فيبكـــي

ويشـــغله البكـــاء عـــن الســـؤال

ومـــا أهـــداك للجـــدوى عليـــه

لـــو أنـــك تقـــدرين علـــى فعـــال

فهذه الصفات قد تتفق مع ملاحظة ابن رشيق السابقة عن الاختلاف في رثاء نساء الملوك وبنات الأشراف، وغير ذوات محارم الشاعر فرثاء المتنبي لأم سيف الدولة وأخته مثالاً على ذلك، ولكن هذه الملاحظة نفسها تتناقض مع فكرة تعميم ضيق الصفات في رثاء المرأة.

وصفات الكرم والإجارة والإغاثة وكتمان السر والجلد، ظلت تظهر في رثاء النساء سواء كن من ذوات محارم الشاعر أو من غيرهن ويبدو ذلك واضحاً في العديد من القصائد التي رثى بها الشريف الرضي (ت٤٠٦) [٤٧]. والشريف المرتضي (ت٤٣٦) النساء[٤٨].

كما يبدو واضحاً في رثاء أبي فراس الحمداني (ت٣٥٧) لأمه فيقول:

([٤٧]) ديوان الشريف الرضي في رثاء أخته، ج١، ص ١٥٩-١٦٤، وتعزيته لأخيه عن ابنته ص ١٥٦-١٥٨ ورثاه ابنه سيف الدولة، ج٢، ص ٢١٢-٢١٤.

([٤٨]) ديوان الشريف المرتضي في رثاء زوجته، ج١، ص ٢٤٨، ج٣ ص ١٩٠، ورثاء أخته ج٣، ص ١٨٧-١٨٩.

ليبكـــك كـــل مضـــطهد مخـــوف
أجرتيـــه، وقـــد عـــز المجيـــر

ليبكـــك كـــل مســـكين فقيـــر
أغثيتـــه، ومـــا فـــي العظـــم ريـــر

أيـــا أمـــاه، كـــم هـــم طويـــل
مضى بك لـــم يكـــن منـــه نصـــير

أيـــا أمـــاه كـــم ســـر مصـــون
بقلبك مات لـــيس لـــه ظهـــور[٤٩]

وكما تبدو في رثاء سبط بن التعاويذي(ت ٥٨٣) لزوجة عماد الدين فيقول:

كـــأن وقارهـــا يـــوم اســـتقلت
بهـــا الأعنـــاق رضـــوة أو شـــمام

تسير على الملوك لهـــا احتشـــام
وللآمـــــال حوليهـــــا ازدحـــــام

ويقول:

فلا جـــود غـــداة ثويـــت يرجـــى
مخيلتـــــه ولا كـــــرم يشـــــام

وسيمت بعـــدك العليـــاء ضـــيماً
وكانت فـــي حياتـــك لا تضـــام[٥٠]

وفي رثاء ابنه السلطان قلج أرسلان بن مسعود يقول:

فلله ما استودعت يا قبر من تقي
ومن كـــرم عـــد ومـــن نائـــل غمـــر

ثوى بك من لو جاوز النجم قدره
لزادت به الأفلاك فخراً على فخـــر[٥١]

وصف النساء بحسن العبادة وشدة الصون يبدو ملحوظاً في كثير من قصائد الرثاء وهذا لا يتنافى مع إيراد الصفات الأخرى.

---

(٤٩) أبو فراس الحمداني، ص ٦٦، ٦٧.
(٥٠) ديوان سبط بن التعاويذي، ص ٣٩٤.
(٥١) المصدر نفسه.

ومما سبق نستطيع أن نقول إن ما جاء في نص الحصري وابن رشيق، لا ينطبق كل الانطباق على الشعر العربي القديم حتى القرن الخامس الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه كلا الناقدين ولكنه ينطبق على صورة المرأة في الغزل ولكنه لا ينطبق على صورة المرأة في الشعر بصفة عامة في جميع المجالات.

كما أن النصوص النقدية الثلاثة للحصري وابن رشيق وابن الأثير لا تستند الى أصول ثابتة في الشعر العربي القديم وأن هناك عدداً من الشواهد يخالفها، فعلى سبيل المثال:

يمكن ملاحظة أنه بعد أن كان الشعراء مثل الفرزدق وجرير يذكرون أسماء زوجاتهم في الشعر دون حرج، أصبح من النادر أن يذكر الشاعر اسم زوجه في الشعر، ويمكن القول إنه منذ القرن الثاني الهجري تقريباً، أخذ ذكر أسماء الأمهات في الشعر عند المدح أو الفخر يتضاءل إن لم يتلاشى تماماً، ويظهر واضحاً في قصائد المدح في ديواني أبي تمام والبحتري عدم ذكر اسم أم الممدوح وكذلك عدم نسبته إليها، بل نجد أنه عند رثاء أمهات الممدوحين أو التعزية فيهن لا تذكر أسماؤهن.

فقصائد المتنبي في القرن الرابع مثلاً في تعزية سيف الدولة عن أمه وأخته الصغرى ثم الكبرى[٥٢].

وكذلك عدد من قصائد الشريف الرضي والمرتضى في القرن الخامس في رثاء النساء كلها لا تحمل ذكراً لاسم المرثية.

ويبدو أن تطوراً معيناً جعل من التقاليد المتبعة عدم ذكر أسماء النساء النبيلات.

يقول القلقشندي في سياق بسطه للعرف المتبع في كتابه الرسائل الرسمية متابعاً في ذلك ما أورده أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨) في كتابه (صناعة الكتاب).

(إن كان المكتوب إليه أم الخليفة، كُتبَ للسيدة أم فلان أمير المؤمنين وإن كانت إمرأة رجل جليل كتب للحرة أم فلان، ولا يُكتب اسمها هذا ما كان عليه الحال في زمن النحاس في خلافة الراضي وما حولها) [٥٣].

([٥٢]) ديوان المتنبي، ج١، ص ٢١٠، ٢١٧.

([٥٣]) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٨، ص ١٨٧.

ويبدو واضحاً أن هذه التقاليد لم تكن قاصرة على الرسائل وإنما شملت الشعر أيضاً، وفي نص القلقشندي السابق تظهر هذه الفكرة مرتبطة بالتمييز وعلو المكانة لهؤلاء النساء حتى إن أسماءهن لا يصرح بها.

ولعل مما يكشف فكرة الترفع بالنسبة إلى المرأة النبيلة في عدم ذكر اسمها، ما ذكره المتنبي في رثائه لأخت سيف الدولة (خولة) حيث أورد الصيغة الصرفية (فعلة) بدلاً من ذكر اسمها صريحاً.

كأن فعلة لم تملأ مواكبها

ديار بكر ولم تخلع ولم تهب(٥٤)

فما أشار إليه ابن الأثير من عدم ذكر اسم الأم، أو عدم النسبة إليها ينطبق على تقاليد متأخرة طرأت على الشعر، جعلت من غير اللائق ذكر اسم الأم، وجعلت النسبة إليها تنحسر من الشعر.

ومن الممكن إرجاع فكرة عدم ذكر أسماء النساء النبيلات إلى المبالغة في فكرة الصون لهؤلاء النساء، ففي شعر الغزل بعد القرن الثاني أصبحت معظم أسماء النساء المتداولة فيه، إن لم يكن جميعها أسماء جوارٍ كأشعار بشار بن برد وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف والبحتري.

ورسالة الجاحظ عن القيان تشير إلى الصورة العامة للجواري، وما يحدث في بيوت النخاسين من مفاسد، وهذا قد يحمل معه أن النظر إلى المحبوبة أصبح يتجاذبه جانبان أولهما الإعجاب الشديد بها، والشعور بإبتذال مكانتها لكونها متعة تعرض وتشتري وتباع(٥٥).

وربما كان لهذا أثره في المبالغة في صون أسماء النساء الحرائر.

أما بالنسبة إلى التطور في عدم المدح أو الفخر بالإنتساب إلى الأم، فيمكن تفسيره بأنه إما أن يكون سياسي أو اجتماعي، فعلى المستوى السياسي، كان سند الخلفاء العباسيين في استحقاقهم للخلافة هو أنهم من آل البيت، لأنهم ينتمون إلى العباس عم النبي (ص) أما العلويون وهم الذين يخشى العباسيون منافستهم، فقد كان

---

(٥٤) ديوان المتنبي، ج١، ص ٨٨.

(٥٥) رسائل للجاحظ، ج٣، ص ١٧١-١٧٨

سندهم هو أنهم أيضا أبناء فاطمة ابنة النبي (ﷺ) وهذا يجعلهم أقرب إلى النبي (ﷺ) ومن ثمَّ فهم أحق بالخلافة، ومن هنا كان لابد للعباسيين أن يبثوا فكرة التهوين من النسبة إلى الأم، وأنها لا تعني شيئاً، وأن النسب لا يكون إلا بالرجال، وذلك لتبطل دعوى العلويين بوجود ما يميزهم في نسبهم عن بني العباس(٥٦).

وعلى المستوى الاجتماعي، انتشرت مع الفتوح الإسلامية ظاهرة أمهات الولد وأصبح عدد ليس بالقليل من الخلفاء والأمراء وأشراف القوم ينتمون إلى هؤلاء الأمهات، وقد دأب أبناء الحرائر على النظر إلى أنفسهم على أنهم أكثر شرفاً من أبناء الإماء، وهذا نتيجة التقاليد العربية القديمة.

ومن هنا كانت وسيلة الأشراف لإثبات تساويهم في شرف النسب مع أخوتهم وبني عمومتهم من بني الحرائر هو التهوين من جانب الإنتساب إلى الأم، ومن هنا إنتشرت فكرة كون الفخر بالأنساب إنما يعود للآباء وحدهم، وأخذت تظهر فكرة أن الأمهات مجرد أوعية لا تقدم ولا تؤخر فيقول أحد شعرائهم:

لا تشتمن امرأ من أن تكون له

أم من الروم أو صفراء دعجاء

فرب معربة ليست بمنجبة

وربما أنجبت للفحل عجماء

وإنما أمهات القوم أوعية

مستودعات وللأحساب آباء(٥٧)

وقد ظل التفاضل بالأنساب مهماً بالنسبة إلى التقسيمات الاجتماعية التي تستند عليها السياسة، وكل الذي حدث هو نفي دور الأم أن تكون طرفاً ذا قيمة في حمل النسب.

قد لا يمكن الجزم بالنسبة إلى السمات المعنوية للمرأة في الشعر، إن تطوراً مماثلاً لما حدث لذكر اسم المرأة في الشعر حدث لها، فالمدح بالسمات

---

(٥٦) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٥، ص ٧٩-٨٣.

(٥٧) ذيل الأمالي، القالي، ص ٢٢٠.

المعنوية لم يتوار، وإنما استمر يظهر في رثاء المرأة، حتى زمن متأخر ومع ذلك لا يمكن القول إن تعميم صورة المرأة في الغزل كان مجرد خلط بدا في نص الحصيري وابن رشيق عند إشارتهما إلى ضيق الصفات.

ففي كتاب (العمدة) لابن رشيق يرد نص يتصل بالمرأة والشعر، ففي سياق إشارته إلى أنه (على شدة الجزع يبني الرثاء) وأن النساء يُجدن الرثاء يعلل هذه الظاهرة بأن ذلك (لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة)(٥٨).

فابن رشيق لم يجعل ذلك أثراً من آثار الرحمة ورقة القلب عند النساء على سبيل المثال، وإنما جعله أثراً من آثار الخور وضعف العزيمة، كما أن ابن رشيق لم يذكر هذا على أنه رأيه الخاص في المرأة ولكن يستعمله على أنه أمر معروف.

وكتاب الحصري (زهر الآداب) يسترعي الانتباه فيه نصوص نثرية تضمن كتابات لـ(أهل العصر) ترد في بعضها الإشارة إلى المرأة بصورة تشف عن الانتقاص حيناً وتشف حيناً آخر عن حساسية بالغة بالنسبة إلى زواج قريبات الرجل، حتى إن هناك من يكره أن تتزوج محارمه، ويرى في هذه الكراهية (سمو نفس وعلو همة) (٥٩).

كما يمكن الملاحظة أنه في الشعر القديم يتكرر ورود الحوار أو النجوى، مع إمرأة يذكر الشاعر اسمها، قد تكون هذه المرأة ابنة الشاعر مثل قول الراعي:

أخليد أن أباك ضاف وساده

همان باتا جنبه ودخيلا(٦٠)

وقد تكون زوج الشاعر مثل قول جرير:

تعزت أم حرزة، ثم قالت

---

(٥٨) العمدة، ج٢، ص ١٥٣.

(٥٩) زهر الآداب، ج٤، ص ٣٦٦-٣٦٨.

(٦٠) ديوان الراعي، ص ٤٧.

رأيـــت الـــواردين ذوي امتيـــاح

تقـــى بـــالله لـــيس لـــه شـــريك

ومن عنـــد الخليفـــة بالنجـــاح[٦١]

وقد تكون امرأة لا تبين في القصيدة علاقتها بالشاعر أو قرابتها له، فـــي مثل قول أبي ذؤيب الهذلي:

تقول أميمة ما لجســمك شـــاحباً

منذ ابتذلت ومثل مالـــك ينفـــع[٦٢]

أو قول الفرزدق:

تقول ابنة الغوثي مالـــك هاهنـــا

وأنت تميمي مع الشرق جانبـــه[٦٣]

ولكن هذا الحوار نادراً ما يواجهنا في الشعر مع نهاية القرن الثاني، كذلك اختفت مع مرور الزمن ظاهرة توجيه الخطاب إلى إمرأة التي تتكرر فـــي الشـــعر القديم أو الحديث عن العاذلة التي يذكر الشاعر أنها تلومه على إسرافه في الكـــرم، أو على شربه الخمر أو على هروبه من القتال، أو تعريض نفسه للخطر أو غيـــر ذلك[٦٤].

وبالرجوع إلى دواوين كبار الشعراء المحدثين بين القرنين الثاني والثالث، مثل البحتري وأبي تمام وابن الرومي يوضح أن ذكر المرأة أصـــبح يكـــاد يكـــون مقصوراً على الغزل.

ومما يسترعي الانتباه في شعر البحتري (ت ٢٨٤هـــ) قصيدة يعزي فيها محمد ابن حميد الطوسي عن ابنته فيقول فيها:

أتبكـــي مـــن لا ينـــازل بالســـــ

---

(٦١) ديوان جرير، ص ٧٧.

(٦٢) المفضليات، ص ٤٢١.

(٦٣) ديوان الفرزدق، ج٢، ص ٨٤.

(٦٤) ديوان كعب بن زهير، ص ٤٤-٦٦-١١٧-١٥٧.

يـــف مشـــيحاً ولا يهـــز اللـــواء

والفتـــى مـــن رأى القبـــور لمـــا
طاف به مـن سـمن بناتـه أكفـاء

قـــد ولـــدن الأعـــداء قـــدما
وورثـــن الـتلاد الأقاصـــي البعـداء

لـــم يئـــد كثـــرهن (قـــيس تـــيم)
عيلـــة بـــل حميـــة وإبـــاء

وتلفـــت إلـــى القبائـــل فـــانظر
أمهـــات ينســـبن أم آبـــاء

ولعمـــري مـــا العجـــز عنـــدي إلا
أن تبيت الرجال تبكـي النسـاء[٦٥]

فهذه القصيدة تتضمن العزاء بتهوين فقد البنت واعتباره ميـزة ينبغـي أن يقدرها ذوو المزايا من الرجال.

كما أن القصيدة تبدو مؤشراً يبين أن النظر إلى المرأة على أنها في مكانة دنيا وعدها مصدر شر كان موجوداً وربما كان هو السائد في الأوساط الأدبية التي يتصل بها البحتري، ومن هنا لم يشعر البحتري بغرابة هذه الصورة التـي يقـدمها في مجال الغراء.

ومما يشير إلى احتقار النساء في ذلك العصر بصورة تلفت النظـر، مـا أورده الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في أحد نصوصه في سياق يبرز فيه ذكره لما عـده من محاسن النساء فيقول:

(ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقـار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن....، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن) [٦٦].

---

(٦٥) ديوان البحتري، ص ٤٠-٤١.

(٦٦) رسائل الجاحظ (النساء)، ج٣، ص ١٥١ -١٥٢.

فكلمة أناساً التي استعملها الجاحظ تشير إلى أن هذا الاتجاه ليس عاماً، كما أنه من الصعب أن نحدد إن كان هذا يوجد في فئات مختلفة أم أنه يوجد في فئة خاصة أو طبقة معينة.

أما ابن قتيبة فيقول في مقدمة كتابه (عيون الأخبار) مشيراً إلى باب النساء وهذا الكتاب مقارب لكتاب الطعام، والعرب تدعو الأكل والنكاح الأطيبين فتقول: قد ذهب منه الأطيبان، تريدهما فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً، وفيه الإخبار عن اختلاف النساء في أخلاقهن وخلقهن وما يختار فيهن للنكاح وما يكره واختلاف الرجال في ذلك[٦٧].

فمن الواضح أن ما يعني به الباب الذي يحمل عنوان (النساء) هو العلاقة الغريزية بين الرجل والمرأة، وما كتبه الجاحظ عن المرأة تحت عنوان (النساء) أو (القيان) يدخل تحت هذه الصورة من أن المرأة أنثى وظيفتها إسباغ المتعة على الرجل ويتركز تحديد مزاياها ومساوئها من هذه الزاوية فقط[٦٨].

وما كتبه ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) تحت عنوان (كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن) لا يخرج أيضاً عن هذا النطاق[٦٩].

ومع أن هذا لا يعني أن الجاحظ أو ابن قتيبة أو ابن عبد ربه لا يشيرون على الإطلاق إلى أخبار النساء حين تتصل بشؤون الحياة الجادة، إذ هم في الواقع يشيرون إلى مثل هذه الأخبار في غير أبواب النساء وعلى سبيل المثال (باب الوفود) في كتاب العقد الفريد[٧٠].

ولكن ما تعنيه الأبواب السابقة هو أن لفظ (النساء) نفسه أصبح أقرب للدلالات المرتبطة باللهو والمتعة منه للدلالة على جنس إنساني يقابل جنس الرجال.

---

(٦٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص ١١٩.

(٦٨) رسائل الجاحظ، ج٢، ص ١٣٩-١٥٩.

(٦٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص ٨٢-١٤٢.

(٧٠) العقد الفريد، ج٢، ص ١٠٢-١١٩.

وليس الهدف هنا إنكار أن يكون قد وجد في الشعر القديم أبيات تحمل إزدراء للمرأة أو قصراً لدورها على المتعة فقط، ولكن تبيان أن هذه الصورة لم تكن هي الصورة البارزة أو الطاغية في هذا المجال.

فهناك أبيات للفرزدق يتعالى فيها أن يبكي على موت إمرأة فيقول:

يقولون زر حدراء والتـرب دونهـا

وكيف بشـيء وصـله قـد تقطعـا

ولسـت وإن عـزت علـى بزائـر

ترابا على مرسـومة قـد تضعضـعا

وأهـون مفقـود إذا المـوت نالـه

على المرء من أصحابه مـن تقنعـا

يقول ابن خنزير بكيـت ولـم تكـن

على امـرأة عينـي إخـال لتـدمعا

وأهون رزء لامـرئ غيـر عـاجز

رزية مـرتج الـروادف أفرعـا[٧١]

فلا يمكن أن تؤخذ أبيات الفرزدق هذه على أنها تعبر عن اتجاه عام في الشعر في عصره يحمل احتقاراً للمرأة.

كذلك لا يمكن أن تؤخذ هذه الأبيات على أنها تعبر عن احتقار الفرزدق للمرأة على وجه الإطلاق، فقد ذكرت من قبل أمثلة من شعر الفرزدق نفسه ملأى بالإشارة إلى الأمهات عند الفخر والمديح.

ومن الواضح أن المرأة التي يشار إليها هنا تتقلص صورتها في الأبيات لتقتصر على (مرتج الروادف أفرعا) المظهر الجسدي المتصل بإثارة غريزة الرجل، وعلى هذا فالبكاء على فقد هذه المرأة ليس إلا بكاء لفقد شيء يتصل بالغريزة، وبالتالي لا يؤثر فقدها جوهرياً على حياة الجماعة، ولا حياة الزوج،

(٧١) ديوان الفرزدق، ج١، ص ٤٢٢-٤٢٣.

ومن هنا يأتي تعالي الشاعر على البكاء، وتصبح (أهون مفقود إذا المـوت نالـه) وتصبح (أهون رزء لأمرئ غير عاجز).

ومن الممكن إرجاع هذا التفاوت الضخم بين الأبيات السابقة التي تـزدري المرأة، والفخر بالأمهات في شعر الفرزدق إلى صورة من صور المقابلة بـين الأم والزوجة التي ترد أحيانا في الشعر القديم، حيث يظهر التقابـل بـين صـورة الأم والزوجة والجنوح إلى إعلاء دور الأم.

فقد سبقت الملاحظة عن المديح بذكر الأمهات عند عدد من الشعراء فـي ذلك العصر.

يقول صخر بن الشريد:

فـأي امـرئ سـاوى بـأم حليلـة

فلا عاش إلا فـي أذى وهـوان[٧٢]

قد يكون وراء هذه الأبيات لمحة هجاء ولكن وردت للفرزدق أبيات يمدح فيها حدراء ويشير إلى إحتمال انقياده لها فيقول:

لو أن حدراء تجزيني كمـا زعمـت

أن سوف تفعل مـن بـذل وإكـرام

لكنت أطوع مـن ذي حلقـة جعلـت

فـي الأنـف ذلّ بتقـواد وترسـام

عقيلـة مـن بنـي شـيبان

دعـائم للعلـي مـن آل همـام[٧٣]

ويقول عروة بن الورد:

فـإني وإيـاكم كـذي الأم أرهنـت

لـه مـاء عينيهـا تفـدي وتحمـل

فلمـا ترجـت نفعـه وشـبابه

أتت دونها أخرى جديـداً تكحـل[٧٤]

---

(٧٢)ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٣٩٧.

(٧٣) ديوان الفرزدق، ج٢، ص ٢٩٥.

فصورة الزوجة هنا يبدو فيها الإلماح إلى الإغراء (أتت دونها أخرى جديداً تكحل) وقد يشير هذا إلى إزدواج النظرة إلى المرأة عند العرب في القديم بين المرأة الأم، والمرأة الحبيبة أو الزوجة، لكن هذا لا يجعل النظرة العامة للمرأة في الشعر ترتبط بالنقص.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن تطوراً ملحوظاً حدث في الشعر العربي يتمثل في إختفاء اسم المرأة والحوار معها من الشعر في غير الغزل، وهذا ما سبقت الإشارة إليه، وقد سبقت الملاحظة أن شعر الغزل بعد القرن الثاني أصبحت معظم أسماء النساء المتداولة فيه إن لم يكن جميعها أسماء جوار، وأن الصورة العامة للجواري في بيوت النخاسين ترتبط بالمفاسد والشرور، وهذا قد يحمل معه أن النظر إلى المحبوبة أصبح يتجاذبه جانبان:

الأول الإعجاب الشديد بها، والثاني الشعور بابتذال مكانتها، وربما كان لهذا أثره البالغ في تدني مكانة المرأة في الشعر وتقلص الصفات المعنوية لها.

إلى جانب هذا، يمكن الملاحظة أن الأدب العربي تعرض لروافد أجنبية من الأمم التي دخلت الإسلام والتي أسهم أبناؤها في صياغة الفكر العربي في جانب أو عن طريق مروياتهم أو كتاباتهم.

إنه من المحتمل أن تكون الثقافة الفارسية قبل الإسلام قد نقلت النظرة الفارسية للمرأة إلى الكتابات الأدبية العربية.

وعلى سبيل المثال ما نجده في رسالة الجاحظ عن (القيان) وهو قد حرص في بدايتها ونهايتها على الإشارة إلى أن الذي كتبها عدد من الأشخاص وردت أسماؤهم في مطلعها يهدفون إلى الدفاع عن القيان[٧٥].

فالمرأة في هذه الرسالة تبدو شيئاً للمتاع (وإنما هن بمنزلة المشام والتفاح الذي يتهاداه الناس بينهم) وبغض النظر عن أن هذه الرسالة يتخذ فيها الجاحظ جانب الهزل يبدو فيها أثر ما في الثقافة الفارسية.

إن البحث حول الروافد الثقافية الأجنبية التي مازجت الثقافة العربية أو أثرت فيها، فيما يتصل بالنظرة إلى المرأة له أهميته البالغة في إلقاء الضوء على تطور صورة المرأة في الشعر منذ القرن الثاني كذلك له أهميته في تبين القيم التي ينظرها النقاد للشعر.

---

(٧٤) ديوان عروة بن الورد، ص ٥٨.

(٧٥) رسائل الجاحظ، ج١، ص ١٤٧-١٤٨.

المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة للزمخشري.
٢- ذيل الأماني والنوادر لأبو علي القالي.
٣- رسائل الجاحظ.
٤- زهر الآداب وثمر الألباب أبو إسحاق بن علي الحصري القيرواني.
٥- شعر الخوارج – إحسان عباس.
٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – القلقشندي.
٧- طبقات فحول الشعراء – محمد بن سلام الجمحي.
٨- عيون الأخبار – ابن قتيبة.
٩- نقد الشعر – قدامة بن جعفر.
١٠- ديوان ابن الرومي.
١١- ديوان ابن قلاقس الأسكندري.
١٢- ديوان ابن النبيه المصري.
١٣- ديوان أبو فراس الحمداني.
١٤- ديوان جرير.
١٥- ديوان جميل بثنية.
١٦- ديوان حسان بن ثابت.
١٧- ديوان حازم القرطاجني.
١٨- ديوان سبط بن التعاويذي.
١٩- ديوان صفي الدين الحلي.
٢٠- ديوان عروة بن الورد.
٢١- ديوان كعب بن زهير.
٢٢- ديوان الخنساء.
٢٣- ديوان الراعي النميري.
٢٤- ديوان الشريف الرضي.

٢٥- ديوان الشريف المرتضي.
٢٦- ديوان الفرزدق.
٢٧- ديوان الأحوص الأنصاري.
٢٨- ديوان المفضل الضبي.
٢٩- ديوان المتنبي.
٣٠- ديوان أوس بن حجر.
٣١- ديوان النابغة الذبياني.
٣٢- البيان والتبيين للجاحظ.
٣٣- الحماسة للبحتري.
٣٤- العقد الفريد لابن عبد ربه.
٣٥- العمدة لابن رشيق.
٣٦- المثل السائر لابن الأثير.
٣٧- المرأة في الشعر الجاهلي – أحمد محمد الحوفي.
٣٨- الكامل للمبرد.
٣٩- الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي.
٤٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه علي بن عبد العزيز الجرجاني.
٤١- الأشباه والنظائر – للخالديان.
٤٢- الأصمعيات.

The intangible traits of the woman in the old Arab poem

Reading in 3 sources

This paper aims to explore the trait and the intangible features for the image of the woman as it appears in the old Arabic poem, in different contexts not the context of the adoration. the extent of the development for these traits during the passing of time. the motive for conducting this paper is noticing the spread of the image for the woman in different fields of the old poem, the shrinkage of this image of poem that followed it, as mentioning the woman was limited to adoration mostly and in condolence in some cases. it appeared in this indication to the development of an event that took place in the poem and related with referring to the woman, meanwhile shedding the light on the extent of the development for the vision to the woman in the Arabic poem, noticing that some certain development may be in relation with the image of the woman that took place in the Arabic poem.

It is known that asset of social, economical, political and intellectual developments occurred in the Islamic Arabic civilization since the first century, it is eliminated that the image of the woman in the poem will remain far away from being effected by all of these developments.